ثقافات الباليوليت والنيوليت في الجزائر

التطور الحضاري لعصور ماقبل التاريخ

أولا: العصر الحجري القديم: (الباليوليتي)[1]: بدأ هذا العصر مع ظهور الانسان واستمر حتى 12000 ق م، وعاش الانسان في هذه الفترة متنقلا جامعا للطعام معتمدا على الصيد، وبما تجود به عليه الطبيعة، وتعود اقدم الأدوات الحجرية الى 2.6 مليون سنة .

ويقسم العصر الحجري القديم الى ثلاث مراحل:

1-**العصر الحجري القديم الأسفل(1.6 مليون سنة الى 100.000سنة ق م):**

ومن أهم الحضارات التي عرفها العصر الحجري القديم الحضارة الألدوانية وتنسب الى موقع أولدوفاي شمال تنزانيا جنوب بحيرة فكتوريا، وهي اقدم حضارة في شمال افريقيا والعالم، وتميزت بالأدوات المصنوعة من الحصى والتي سميت بالقواطع ذات الحد الخشن، ويمثل موقع عين الحنش اقدم موقع بشمال افريقيا ويعود الى 1.8 مليون سنة، وتعود الصناعات الحجرية لهذه المنطقة الى النمط الصناعي القديم وهي تتشابه مع صناعات شرق افريقيا (موقع أولدوفاي شمال تنزانيا، موقع كوبي فورا بكينيا وحوض أومو باثيوبيا).

---

[1]- وهي كلمة يونانية مكونة من قسمين: بالينوس وتعني القديم ليتوسن وتعني حجر

ومن خلال العظام التي عثر عليها بموقع عين الحنش وهي لحيوانات ثديية منقرضة والتي لاتستطيع العيش إلا في المناخ الرطب والحار منها الفيلة وفرس النهر ....

ومن طبيعة الأدوات الحجرية التي عثر عليها بعين الحنش تدل على ان الانسان قد استهلك لحوم الحيوانات التي كان يصطادها...

وفي هذا العصر تنوعت المواقع الأثرية وانتشرت في كل افريقيا وحتى في أوربا وأسيا.

ظهر خلال هذه الفترة نوع جديد من الانسانيات وهو الاومو اركتوس، أي الانسان الذي يسير منتصب القامة وانتشرت معه نوع جديد من الأدوات خاصة الفأس اليدوية ذات الشكل البيضوي واللوزي، وبها حدان قاطعان.

واستعمل الإنسان في هذا العصر نوعين من الحجارة

- حجر الصوان: والذي يتميز بسهولة التشذيب وفعالية الأدوات المصنوعة منه.
- الحجر الكلسي: ويتميز هذا النوع بصعوبة التشذيب لصلابته، وقد كان الإنسان القديم يلجأ إليه لنقص حجر الصوان في بعض المناطق.

ومن الحضارات الحضارة الأشولية: نسبة الى موقع سانت أشول، ولم تنحصر هذه الحضارة في أوربا بل امتدت الى شمال افريقيا حيث عثر على أدوات حجرية كثيرة ولعل أبرزها الفؤوس اليدوية المعروفة بالبفياس أي ذات الوجهين ومن اهم مواقعها تغنيف بولاية معسكر (اكتشفت في القرن 19م) حيث عثر بها على أدوات حجرية وفكوك سفلية للإنسان تعود الى 600000 سنة، ويصنف العلماء هذه العظام الى الانسان المنتصب القامة المعروف بإنسان الاطلس.

2- **العصر الحجري القديم الأوسط:** (1000000 20000 سنة ق م)

وتميز بصناعة الشظايا، والتي أصبحت تتوافق مع ظروف الحياة الجديدة، وأصبحت أكثر فاعلية، وسادت وانتشرت هذه الحضارة في مواقع مختلفة، واهم أدات ظهرت في هذه الفترة البيفاس وصانعها هو إنسان نيندرتال، ومن اهم الحضارات في هذا العصر :

1-الحضارة الموستيرية: تنسب الى موقع Monstier بفرنسا ، وتتميز أدواتها باستعمال الطريقة اللوفالوازية ومن أدواتها المكاشط ورؤوس السهام والنصال، ومن المواقع التي تم العثور فيها على أدوات هذه الحضارة موقع " تافوغالت وجبل أرحود بالمغرب الأقصى " وموقع رأس تنس بالجزائر، وموقع بيرار العاصمة ، وبتونس نجد موقع سيدي الزين قرب مدينة الكاف، وموقع القطار قرب قفصة، وصاحب هذه الحضارة هو انسان نيندرتال الذي عثر على بقاياه العظمية في جبل أرحود جنوب المغرب، والمتمثلة في جمجمتين، ومواقع هذه الحضارة نادرة مقارنة بمواقع الحضارات الأخرى .

2- الحضارة العاترية: تنسب الى موقع بير العاتر بتبسة وبالضبط واد الجبانة الذي اجرى فيه العالم الفرنسي موريس ريغاس حفرياته، وأطلق هذه التسمية على هذه الصناعة سنة 1918م وأخذت تسميتها الرسمية بعد المؤتمر العلمي المنعقد بمدينة مونيلي سنة 1922م.

ولقد اختلف العلماء حول أصل هذه الحضارة، فيذهب قابريال كامبس وليونال بالو الى ان أصولها في شمال افريقيا

اما رشيد الناضوري فيقول أن أصولها من المشرق، ودليلهم هو وجود صناعة مشابهة للعاترية في شبه الجزيرة العربية، وتعود الى فترة أقدم من العاترية .

وتمتد الحضارة العاترية من البحر المتوسط شمالا الى الصحراء الكبرى جنوبا، ومن حوض النيل شرقا الى المحيط الأطلسي غربا.

ومن اهم مواقعها موقع تافوغالت وموقع تيمارا بالمغرب الأقصى وهي المواقع الأقدم، وأحدثها بالجزائر وتونس، ومن مواقعها بالجزائر موقع بير العاتر، وكهف بلغوماري، وبتونس موقع عين متهرشا، وموقع وادي العفاريت شمال قابس، وموقع سيدي منصور .

ومرت الصناعة العاترية بثلاث مراحل وهي:

-المرحلة القديمة: وتتميز هذه المرحلة بقرب صناعتها من الصناعة الموستيرية ذات تقنية نوفالوازية، ونادرا مانجد ساقا في أسفل قاعدتهان وتعود اغلب مواقعها الى المغرب الأقصى.

- المرحلة المتوسطة: وتتميز هذه المرحلة بوجود ساق في كل أدواتها ومنها المسنان والمثاقب.

- المرحلة الحديثة: تتميز أدواتها بانها دقيقة وحادة، ومنها رؤوس السهام المزودة بساق في أسفلها.

الانسان والبيئة في العصر الحجري الوسيط: فمن هو الانسان العاتري؟

يرجعها البعض الى الانسان العاتري من خلال البقايا العظمية التي عثر عليها في كل من دار السلطان وتيمارا بالمغرب الأقصى.

ويقول كلود براهيمي انها ترجع الى انسان نيندرتال والذي نشأ في فترة تزامن العصر الحجري القديم الأوسط، ويقول محمد سحنوني انها تعود لأشباه إنسان نيندرتال الأوربي، ويقول بعض العلماء أن أصول إنسان النيندرتال من المناطق الجليدية في أوربا، وهناك من يقول أنه يرجع الى مناطق مختلفة، وهناك من يقول أنه أصيل في المنطقة من خلال الأدوات الحجرية الموجودة.

وأما المناخ الذي كان سائدا في تلك الفترة في شمال إفريقيا فهو المناخ الرطب والدافئ، وذلك من خلال تحليل عينات التربة التي وجدت بها الأدوات العاترية، وكانت تنمو في هذه الفترة أشجار الأرز والصنوبر.

وتنوع الإنسان العاتري في غذائه بين لحوم الحيوانات لاسيما الضخمة منها، واستهلك نخاع العظام، كما تغذى على النباتات البرية والقواقع.

3-حضارات العصر الحجري القديم الأعلى:

الحضارة الإبيرو مغربية: اكتشفها بول بالاري في بداية القرن العشرين، كما يطلق عليها البعض الحضارة الوهرانية او المويلحية، ويرى البعض انها امتداد للصناعة القزمية الابيرية ومنها اطلق عليها اسم الابيرو مغربية، وتمتد هذه الحضارة من خليج قابس التونسي الى السواحل الأطلسية المغربية.

إنسان الحضارة الابيرو مغربية: وتعتبر المواقع الأثرية التي وجدت بها هذه الحضارة غنية بالمخلفات العظمية البشرية، حيث يحصي الباحث سليمان حاشي أكثر من 500 هيكل تتوزع حول مواقع أفالوبورمل، وكلوماطة و تافوغالت، وينتمي صاحب هذه الحضارة الى الانسان العاقل المعروف بانسان مشتى العربي، ويقابل هذا الإسان في أوربا إنسان كرومانيون.

ومن صناعات الحجرية الابيرومغربية: النصال ذات الحد المشذب والمسننات والمطاحن، ومن مميزات هذه الحضارة الصناعات العظمية المتمثلة في السكاكين والمثاقب وغيرها....

الوسط الطبيعي: تتميز التحاليل التي أجريت على النباتات أنها كانت تنمو في هذه الفترة أشجار الصنوبر والأرز ، مما يدل على أن المناخ كان باردا ومن الحيوانات التي وجدت بهذه الفترة الخنزير البري والبقر والحصان المغربي والآيل، وكان الانسان في هذه الفترة يتغذى على لحوم هذه الحيوانات الا جابت النباتات والحلزون.

وكان الانسان في هذه الفترة يسكن الكهوف والمغارات القريبة من الساحل.

الحضارة القفصية: تنسب هذه الحضارة الى موقعها النموذجي بمدينة قفصة وبالضبط موقع المقطع، ويعود الفضل في اكتشافها الى العالم الفرنسي دي مورقان، وتتميز هذه الحضارة بصناعتها القزمية الميكروليتية، وبانها صناعة قارية داخلية محدودة في توسعها الجغرافي مقارنة بسابقتها، وتحدد مواقعها في وسط وغرب تونس وشرق الجزائر ومن مواقعها القطار، وبئر ام علي، وعين سندس، وأم العرائش ...

وتتميز الصناعة القفصية بالدقة والصغر والمصنوعة من مادة الصوان والعظام، وبيض النعام، والمتمثلة في السكاكين الخناجر والمناشير والمثاقب.

الوسط الطبيعي والبشري للحضارة القفصية: من خلال الدراسات تبين ان المناخ كان بارداً ورطباً، حيث انتشرت أشجار الأرز والصنوبر، كما عثر على عظام البقر الوحشي والحصان البري.

وكان يعيش الانسان القفصي في مستوطنات على الهواء الطلق، وفي الكهوف. واختار المناطق القريبة من المياه والبحيرات والأودية، وكان يستهلك الانسان القفصي لحوم الحيوانات التي يصطادها حيث لم يكن الانسان القفصي مدجن، ومن الحيوانات التي اكلها الحصان، الضبي، الغزال والبقر الوحشي، كما استهلك جذور النباتات، واهم ما استهلكه الانسان في هذه الفترة الحلزونيات حيث عثر على بقاياها فيما يعرف بالرماديات وهي مواقع تمتد لمئات الأمتار، ويصل سمكها في بعض الأماكن الى خمسة امتار.

الانسان القفصي: ويطلق على إنسان هذه الفترة عدة تسميات منها ماقبل المتوسطي وفجر المتوسطي، واوائل المتوسطي، ويطلق عليه قابريال كامبس إنسان ماقبل البربر، ويندرج إنسان القفصي ضمن سلالة الإنسان العاقل العاقل ، وله وجه يمتاز بالاستقامة، مع ارتفاع في عظم الجبهة والفكين قليلة الخشونة.

ثانيا: العصر الحجري الوسيط(الميزوليتيك): ويبدا من حوالي 15000 سنة ق م الى حوالي 7500 ق م، وهو عصر انتقالي من مرحلة الصيد والالتقاط الى مرحلة الرقي والزراعة، واستئناس الحيوان، وتميز هذا العصر باعتدال المناخ والدفء النسبي، فتحول الانسان فيه من العيش في الكهوف والمغارات الى التجمع قرب الأنهار والينابيع، وبذلك بداية الاستقرار البشري، وأدوات هذا العصر أكثر دقة وأصغر حجما صانعها الانسان العاقل العاقل.

ثالثا: **العصر الحجري الحديث(النيوليتي)**: بدأ هذا العصر حوالي 75000 سنة ق، وفيه تحكم الإنسان في الزراعة وتربية الحيوانات، مما زاد في عملية الاستقرار البشري في مناطق متفرقة، واكتسب فيه بعض المفاهيم المنظمة لحياته، كمفهوم الملكية الفردية، كما عرف تطور حرفي في صناعة الأدوات الفخارية غلا جانب الصناعة الحجرية، كما بدأ في طحن الحبوب كالحنطة والشعير والشوفان.

ومن مواقع العصر الحجري الحديث بشمال افريقيا، موقع شهيناب بالسودان والتي اعتبر العلماء في البداية أن هذه الحضارة تعود أصولها الى هذا الموقع، لكن بعدها توالت الاكتشافات في منطقة الهوقار وموقع تووين بأدرار، وقد خلص قبريل كامبس أن مناخ الصحراء كان رطبا، وكان به شبكة من المياه والبحيرات المغلقة، وجريان بعض الأودين كوادي تفاست الذي يتجه نحو الجنوب، وواد الساورة الذي يتجه نحو الشمال، ووادي أغرغار الذي يتجه نحو الشمال الشرقي، ومن ثم لا يستبعد أن يكون الاستقرار في المواقع الصحراوية قد تم خلال الألف السابعة ق م.

ويتميز هذا العصر بهذه المواقع الى الافتقار للصناعة الحجرية وغن وجدت فهي غير متقنة الصنع لأن معظم صناعتها كانت من الحجارة البركانية (كالبازلت والكوارتز).

العصر الحجري الحديث (نيوليتيك)

ظهرت فى الجزائر الشمالية والجنوبية ، خلال أزمنة مختلفة ، خضارة جديدة ، هي حضارة العصر الحجري الحديث (نيوليتيك) التي أحدثت تغييرا واضحا فى أساليب معيشة السكان كما تعد ابتكاراتها فى المجال التقني و فىأساليب استحصال الغذاء ثورات حقيقية ، وضعت قواعد للمجتمعات الريفية المغربية ، دامت عصورا عديدة . ان هذه المرحلة الطويلة التي بدأت فى الصحراء فى فجر الألف السابعة وامتدت حتى الألف الثانية ، قد شهدت تبدلات مناخية كبيرة المدى ، وقعت فى أصقاع الصحراء الواسعة . ورغم أن عوامل هذه التبدلات غير معروفة الا أنه من الواضح أن العصر الحجري الحديث قد عاصر فى الصحراء مرحلة رطبة أخيرة ، قبل أن يعم الجفاف شبه الكامل البلاد الواقعة جنوبي الأطلس . ويجب اذن أن نأخذ بعين الاعتبار هذا التبدل المناخي ، فيما اذا أردنا فهم الازدهار الحضاري الذي تم فى مجالات جغرافية تخلو اليوم من البشر .

كانت الجزائر الشمالية والصحراء عندئذ تكونان مقاطعتين متباينتين من حيث السكان والطابع الحضاري . وهو ما يحتم أن ينظر فى التغير الحادث فى مجال الأدوات ووسائل الاستعمال اليومي من زاوية تقسيم جغرافي وتكنولوجي . اذ أن ثورات الحجري الحديث لم تشمل بلادنا فى فترة واحدة ولا بكيفيات موحدة (شكل 17) .

بيد أنه يمكن وصف الخطوط الكبرى لتجديدات العصر الحجري الحديث .

لقد سجلت تقنيات صناعة الأدوات الحجرية تطورا فى مجال الصقل . حقيقة أن صناع ما قبل التاريخ قد صقلوا العظم وربما الحجارة أيضا ، قبل النيوليتي ، لكن تقنية الصقل لم تحظ لديهم بالأهمية التي ستكون لها فى النيوليتي . لقد برزت هذه التقنية الجديدة فى صناعة أدوات

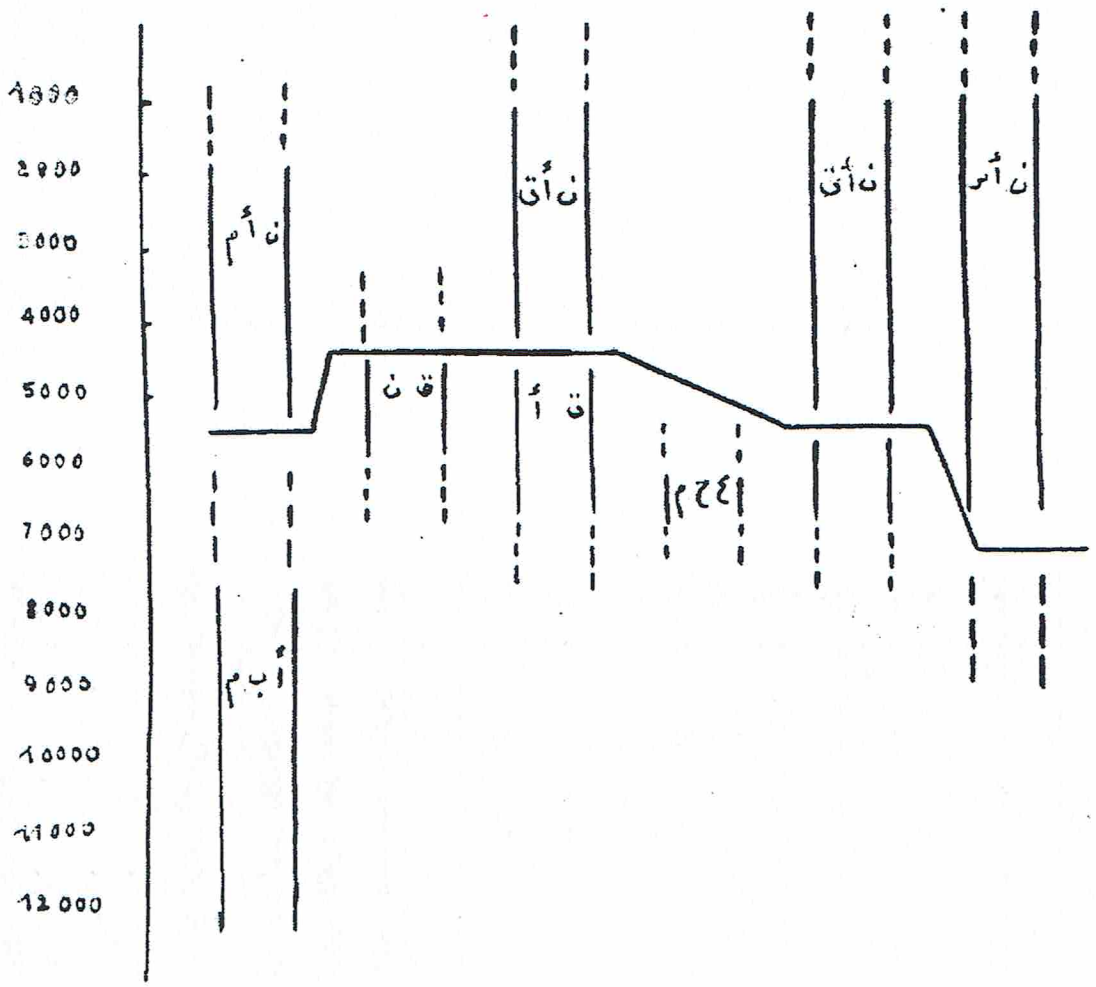

شكل 17 : بدايات النيوليتي فى شمال افريقيا . وقع التحول الى النيوليتي فى فترات مختلفة . وبأشكال متباينة حسب المناطق المأخوذة بعين الاعتبار .

أ . ب . م : ايبيرو ـ مغربي .
ن . أ . م : نيوليتي ذو أصول متوسطية .
ق . أ : قفصي اعلى .
ق . ن : قفصي نموذجي .
ن . أ . ق : نيوليتي ذو اصول قفصية .
ع . ح . م : عصر حجري متأخر .
ن . أ . س : نيوتيلي ذو اصول سودانية .

تسمى بالفؤوس والبلطات التي كان الصقل يتناول جميع جوانبها ، أو بعضا منها ، وهي أدوات تنتهي بحد قاطع . غير أننا لا ندري فيما إذا كانت وظيفة تلك الأدوات تماثل وظيفة القطاعات والبلطات الحالية (صورة 28) .

وظهر أسلوب جديد فى مجال التهذيب الملحق بالحجارة المنحوتة . انه تنقيح شامل تناول جزءا هاما من الشظية . ومن أجل ممارسة هذا التنقيح أهملت تقنية الطرق واستبدلت بطريقة الضغط التي تسمح بنزع قطع أكثر دقة وطول . انها تقنية مرتبطة بظهور رؤوس السهام . وهي عبارة عن شظايا صغيرة ذات أشكال ثلاثية تقريبا ، تم نحتها بواسطة تنقيحات شملت الوجهين (صورة 19) .

ولكن هناك وثائق مادية تشهد بابتكار أكبر أهمية فى مجال تاريخ التقنيات وأنماط الحياة انه الفخار . لقد تواصل البشر لأول مرة خلال الحجري الحديث الى صنع أواني توضع على النار دون أن تتحطم . واستخدموا لهذا الغرض الطين ، وهو مادة تتصف بالليونة والمقاومة .

هناك ثلاث طرق شاعت فى صناعة الأواني الفخارية أثناء العصر الحجري الحديث هي :

ـ صنعت بعض الأواني الفخارية اعتمادا على تقنية الحماميات ، حيث كان الصانع يشكل اسطوانة رقيقة من الطين ، ثم يمطلها ويعطي لها شكلا حلزونيا كي تكون جسم اناء .

ـ القولبة ، وتتمثل فى تغطية القالب (حبة قرع ، بيضة نعام) بالطين ، فيعطي القالب شكله للاناء .

ـ طريقة الطرق ، وتتطلب استعمال حصاة كمطرقة ، تطرق بها كرة الطين حتى تعطي الشكل المرغوب ، ومفهوم أن داخل الاناء هو الذي يطرق بهذه الكيفية .

يصقل الصانع ، فى حالة القولبة وتقنية الحماميات ، سطح الاناء غير المنتظم باستخدام مشذب أو خرقة مبللة ، وربما كان يقتصر على فعل ذلك بيده . والمشذب (من عظم أو خشب) هو عبارة عن أداة مسطحة قاطعة تسمح بسحج سطح الاناء الموضوع للصقل .

تأتي بعد ذلك عملية زخرفة الاناء ، والطين لايزال مرنا قبل أن يشوى، لقد تم التعرف على عددَ كبير جدا من الأدوات التي كانت تستعمل فى الزخرفة ، نذكر هنا أهمها : المشط وهي أدوات ذات أسنان يختلف عددها وتباعدها . وقد يكون المشط مقوسا أو مستقيما . المسواط ويمثل نهاية مستوية حادة . كما استعملت المثاقب والاسفينات أيضا . بالاضافة الى مشط تدعى بالملولبة ، وتتمثل فى حبل صغير يلف حول قضيب مختلف المرونة . كما استفاد صناع الحجري الحديث من بعض الأدوات الجاهزة التي قدمتها الطبيعة ، مثل القواقع وسنابل الدخن والقضبان المجوفة ، الخ ..

للحصول على زخرف والآنية لاتزال طرية ، يكفي الضغط بالأداة على سطح الاناء ، وتكرير تلك الحركة بحسب الضرورة . كما يمكن الحصول على زخرف متنوع الأشكال باستخدام نفس الأداة ولـــكن بكيفية مختلفة (شكل 18) .

بعض الأمثلة من الزخرف :

ـــ يحصل على الزخرف المسنن بتحريك المسواط حول نفسه . واذا كانت نهاية المسواط دائرية ، يحصل على زخرف متموج .

ـــ يشكل شق القصبة المستطيل زخرفا على شكل اكليل.وفيما اذا حرك الشق فى كل مرة حول نفسه بمقدار 180 درجة يحصل على زخرف موجي الشكل .

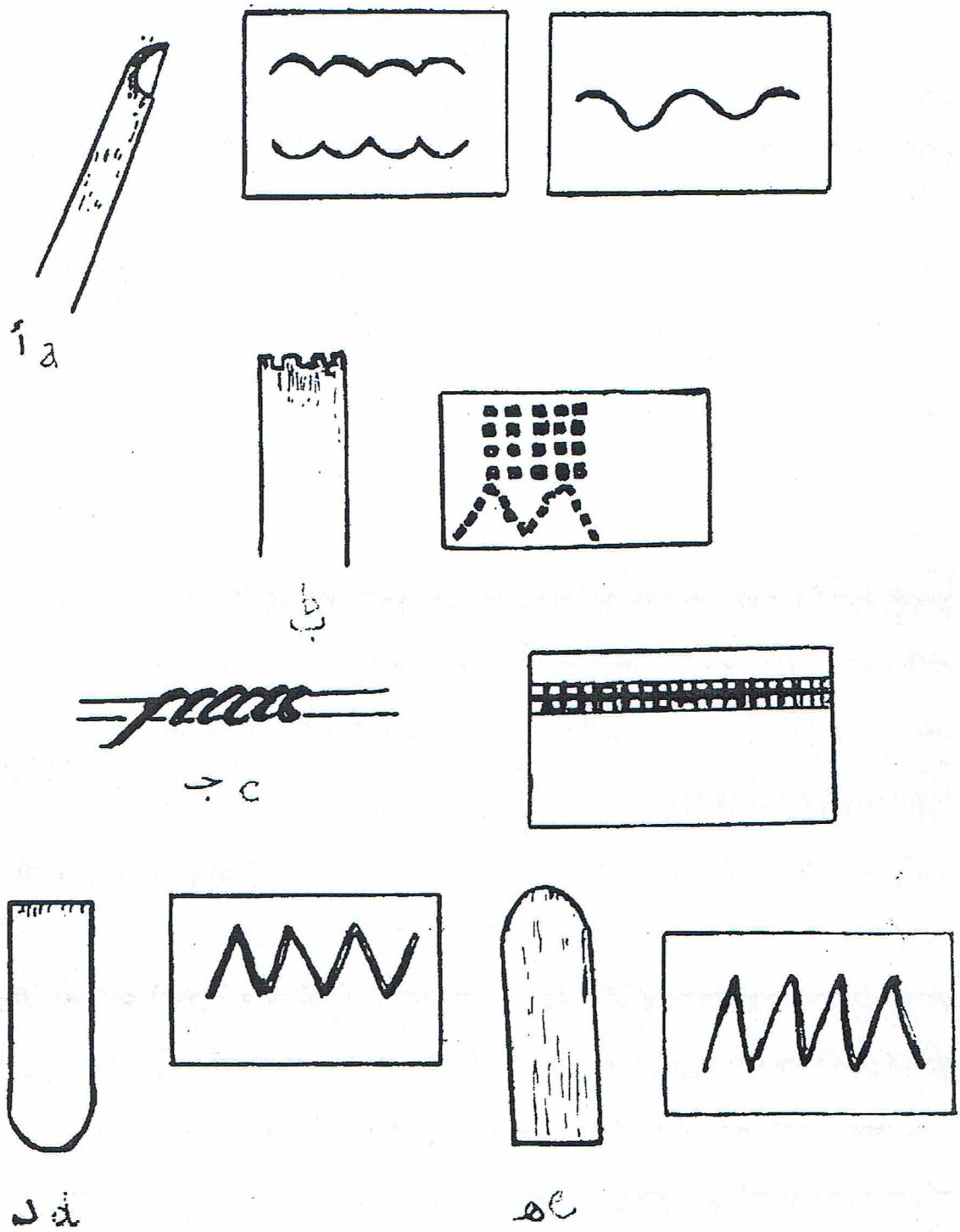

شكل 18 : امثلة من زخرفة الفخار والادوات التي استعملت .
ا) شق قضيب مجوف .
ب) مشط ذو اربعة اسنان .
ج) مشط ملولب .
د ، هـ) مسواط .

تكون الأشكال والزخارف ، تبعا للاقاليم ، احدى قواعد التمييز والتصنيف فى حضارات الحجري الحديث .

لا يوجد ما يؤكد العلاقة بين صناعة الفخار المزخرف واستعمالاته ، وبين أعمال الزراعة . كانت الزراعة معروفة آنذاك فى أقطار أخرى من العالم كالشرق الأدنى مثلا . وفى الجزائر عثر على دلائل ضعيفة حول هذا الموضوع . غير أنالرسوم الصخرية تعد شهادة لا لبس فيها عن الرعي الذي كان يعتبر نشاطا متميزا لبعض سكان الصحراء .

لكن هذه الأساليب الجديدة فى مجال المعيشة لم تقض على الأساليب القديمة القائمة على الصيد البري والبحري وعلى جمع الأثمار رغم منافستها لها .

وهكذا فان رجال الحجري الحديث ، بمواصلتهم للتقاليد الفنية والتقنية السابقة للنيوليتي أدخلوا بلادنا عصر حضارات الرعي والزراعة ، ولقد ظلت تربية النبات والحيوان ، الى جانب استعمال الخزف ، صفات مسيطرة على الثقافة المادية لمجتمعات الريف الجزائري .

الحجري الحديث ذو الاصول السودانية :

تتجلى أقدم بقايا العصر الحجري الحديث فى المرتفعات الصحراوية وفى الهقار . حيث تعود محتويات موقع أمكني (شمال غرب تمنراست) الى 7600 ق . م . وهي تمثل نوعا من النيوليتي المعروف فى جهات أخرى وفى الصحراء الوسطى ، ويدعى بالنيوليتي ذي الأصول السودانية = (ن . أ . س) .

ان هذا النوع فقير نسبيا من حيث الأدوات الحجرية . ويظهر أن للمواد الخام الصعبة الانصياع دور فى هذا العوز . وتحتوي أدواته ذات

الصنع الرديء على شيء قليل من الأدوات المتخصصة (محكات ، مخارز ، نصال) ، وعلى رؤوس سهام رديئة جدا . غير أن أدوات الطحن فيه كثيرة . فزيادة على أنواع المطاحن المعروفة منذ الحجري المتأخر ، هناك أنواع أخرى من الرحى الحجرية المخصصة لسحق الحبوب (صورة 20) . كما ظهرت أيضا أدوات حجرية مصقولة وحجارة محززة ، وهي قطع مصقولة غالبا ، تحمل حزة أو عددا من الحزات العريضة . وليس مستبعدا أن هذا النوع من الأدوات كان يستخدم فى شحذ وصقل أدوات عظمية . وربما كذلك فى ضبط توازن بيض النعام . مع ملاحظة أن هذا الأخير كان نادرا فى (ن . أ . س) فعلا ان استعمال بيض النعام الذي كان شائعا فى العهد القفصي قد فقد هنا أهميته . ففي موقع أمكني مثلا ، لا توجد قطعة واحدة من بيض النعام المزخرف .

توجد أدوات من العظم المصقول ، لكنها قليلة من حيث العدد والتنوع . وعثر فى أمكني أيضا على خنجر جميل جدا ومزخرف ، وعثر فى منيت (بجبال مويدر) على صنارة وقطعة خطاف صيد من عظم ، مما يدل على ممارسة الصيد .

ويبرز الفخار ضمن هذه الأدوات القليلة التنوع مؤكدا أصالته السودانية ، خاصة فى الأشكال والزخارف .

ان الأواني كثيرة ، وتتميز بقعرها النصف دائري عن فخاريات النيوليتي بالشمال ذات القعر المخروطي (صورة 21) . ويحتمل أن الصناع قد استخدموا هنا تقنية معقدة : تحصلوا على القعر النصف دائري بقولبة الطين على جسم كروي (حبة فرع) ، ثم شكلوا بقية الاناء بطريقة الحماميات .

أما زخرف الأواني فهو غني ومتنوع ، ويظهر على سطح الأناء كله ، وعلى الجوانب الداخلية من حافة الاناء أيضا . ويوحي الزخرف الموجي الشكل فى أواني أمكني وأماكن أخرى كمنيت ، بتقارب مع الفخار النيوليتي القادم من السودان (الخرطوم) . وهنا يكمن أصل تسمية هذا النيوليتي بالسوداني الأصول .

أما الوثائق البشرية المكتشفة فى مواقع (ن . أ . س) فهي قليلة جدا . ولم يعثر منها فى الصحراء الجزائرية سوى فى مواقع أمكني ومنيت وتمنراست . (يوجد هذا الأخير على بعد بضع كيلومترات من المدينة) .

لقد أسفرت دراسة البقايا البشرية ، وخاصة منها الجماجم على النتيجة التالية ، وهي أن انسان نيوليتي الصحراء الوسطى لا ينتمي لأي من مجموعتي الانسان العاقل المعروفتين خلال العصر الحجري المتأخر ، والتي استمرت فى الشمال حتى العصر الحجري الحديث . ذلك أن هؤلاء البشر ينحدرون من فصيلة زنجية سودانية . تتميز على الخصوص ببروز الفقم (الفك المتقدم) والخيشوم العريض (الأفطس) ، وباستطالة السواعد والسيقان ، الخ ..

وبفضل المعلومات المستخرجة من مواقع (ن . أ . س) أمكن رسم صورة واضحة عن صحراء الحجري الحديث التي كانت تختلف عن صحراء اليوم . فعلا لقد كشفت فلوروفونا ذلك العصر بوضوح على مناخ كان أكثر رطوبة من مناخ اليوم . ولنا خير دليل فى موقع أمكني ، اذ تتكون فونا هذا الموقع من أنواع تعيش حاليا فى نفس الاقليم ، مثل الغزال ، والتي تعيش فى مناطق أبعد فى مرتفعات الهقار كالأروية ، الى جانب أنواع تعيش فى مناطق جنوبية أكثر رطوبة واخضرار مثل الخنازير .

وفضلا عن هذا كشفت الحفريات بمـوقعي منيت وأمكني عن بقايا أسماك وزواحف ، مما يؤكد أن الصحراء كانت تسقيها مياه وديان هامة .

الحجري الحديث ذو الأصول القفصية :

ينتشر هذا النوع فى الشمال أكثر من نظيره (ن . أ . س) . بحيث أنه معروف فى الجزائر الشرقية مثلما ما هو فى شمالي الصحراء . ويتمثل الحجري الحديث ذو الأصول القفصية = (ن . أ . ق) فى الجزائر الشرقية خاصة فى مواقع داموس الأحمر وبوزاباوين وفى جبل فرطاس . أما فى الصحراء الشمالية فان مواقعه تمتد من الشرق الى الغرب بجوار مواقع (ن . أ . س) متجاوزة حدود الجزائر حتى المحيط الأطلسي .

وقع الانتقال هنا من القفصي الى النيوليتي بصفة تدريجية ، حيث عرفت صناعة الأدوات الحجرية اختفاء تدريجيـا فى بعـض الأدوات القفصية ، وكذلك الأدوات الحجرية المصقولة ، الى جانب الفخار طبعا ، وقد عرف هذا الفخار بأوانيه ذات القعر المخوطي والفتحة الواسعـة وبزخارفه المركزة على الحافة . لكن الفخار لم يعرف الأهمية التي بلغها فى مرتفعات الصحراء الوسطى . ويبدو أنه تعرض لمنافسة شيء آخر هو بيض النعام ، حيث كانت البيضة تثقب وتفرغ ثم تستعمل اناء . وقد عثر فى مستوى النيوليتي بموقع مويلح (اقليم ورقلة) على مخزن حقيقي من بيض النعام ، يتكون من احدى عشرة قارورة (صورة 22) .

لكن بيض النعام قد أصبح منذ العهد القفصي مادة ضرورية أولية لصناعة قطع العقود والنوط والأساور .

يسيطر على قطع البيض المعثور عليها زخرف تحزيزي ذو طابع هندسي غالبا . وتحمل القارورات فى موقع داموس الأحمر زخرفا من هذا النوع يحاذي الثقب العلوي فيها .

أما الأدوات العظمية المصقولة فى (ن . أ . ق) فهي غنية ومتنوعة مثلما كانت فى العهد القفصي ، واحتوت بعض المواقع ، كموقع بوزاباوين وداموس الأحمر على وفرة فى المخارز من مختلف الأشكال والأحجام ، وعلى سكاكين وملاعق ، وغير ذلك ..

اذا كانت وسائل الطحن بما فيها من عدد وأنواع ، كالمطاحن والمهارس والرحى ، فى كل من (ن . أ . ق) و (ن . أ . س) لا تبرهن علىوجود زراعة ، فان ذلك يشير بالتأكيد الى أن الغذاء النباتي كان آنذاك أكثر انتشار منه فى الحجري المتأخر .

نيوليتي التـــل :

انه مجهول أكثر من سابقيه . ويحتمل أنه قائم على أصول ايبيري ــ مغربية . لكن كيفية انتقاله من هذا الأخير لم تدرس بعد .

يظهر هذا النيوليتي ممثلا فى كثير من مغارات الساحل الجزائري ، وخاصة فى اقليم وهران (مغارة بوليغون وطروغلوديت) .

تتكون أدواته الحجرية من قطع حجرية دقيقة (ميكروليثية) هندسية الشكل ، ضمنها بعض رؤوس السهام النادرة . يضاف اليها أدوات ثقيلة قديمة ، مثل المكاشط والقطع المحززة الخ ..

لكن أصالة هذا النيوليتي تتأكد أكثر فى الفخار وما ينطوي عليه من زخرف غني .

ويبدو أن أصحاب هذه الحضارة من أحفاد انسان مشتى العربي كانوا يمثلون أواخر الايبيري ــ مغاربة ، الذين أرغمهم التوسع القفصي على النزوح ، فيما يبدو ، نحو المرتفعات الساحلية (مرجاجو) .

ازدهار فن ما قبل التاريخ :

رأينا كيف ترجم الانسان اهتماماته ، منذ العهد القفصي ، فى أعمال من الرسم والنحت والنقش ، اعتبرناها عملا فنيا . غير أن تلك المنجزات كان يغلب عليها طابع البساطة فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة .

ولقد خلف الانسان النيوليتي ، الشمال والجنوب على السواء ، أعمالا فنية قيمة ، جعلت من الجزائر أحد المتاحف الكبرى لفن ما قبل التاريخ . ولايزال احصاء هذه المآثر أمرا بعيد المنال اذ تشهد كل سنة اكتشافات جديدة فى هذا المجال . ان ما نعرفه عن هذا الفن الآن يكفي لأن نعتبر الحجري الحديث مرحلة عبرت فيها عبقرية شعوب شمال غرب افريقيا عن نفسها بنجاح كبير .

المنحـــــوتات :

تعد الاحجار القفصية المنحوتة بالمقطع من النوع الذي يصعب فهمه ، كما أنها ذات تقنية رديئة أحيانا . وهي تعتبر فى الوقت الحاضر أولى منتوجات ما قبل التاريخ . ظهرت خلال النيوليتي ، وخاصة فى الصحراء منحوتات معتبـــرة من الناحيتين الفنية والتقنية ، حيث أصبحت تلـــك المنحوتات مصقولة تماما ، وهي تمثل فى مجموعها تقريبا أشكالا حيوانية ، كبقر سيلي (الهقار) وجبارن (طاسيلي ــ ناجر) وغوندي عرق ادمير . كان النحت يقتصر أحيانا على نهاية قطع اسطوانية من الحجر المصقول ظلت تعتبر خطأ ، ولمدة طويلة مدقا . ومنها غزال اماكسن (طاسيلي ــ

تاجر) ، وكبش تاجنتورت (الهقار) (صورة 23) أو تامنتيت (توات). وتأخذ بعض هذه المدقات الوهمية شكل نهاية قضيب الذكر (الحشفة) .

الفـــن الصخـري :

أبدع رجال الحجري الحديث فى مجال الرسم والنقش على الجدران الصخرية .

لقد تجلت أعمالهم فى جهات كثيرة : فمناطق الأطلس الصحراوي من حدود المغرب الأقصى حتى الأوراس غنية بالنقوش الصخرية . وفى الطاسيلي ناجر تكثر الجدران الصخرية المرسومة ، بينما تندر هنـاك النقوش . وفى مرتفعات الهقار الجبلية توجد كل من النقوش والرسوم .

ونحدد لأنفسنا هنا ذكر بعض المحطات من كل من المناطق الثلاثة السالفة الذكر ، اذ ليس فى نيتنا القيام باحصاء كامل لمواقع الأعمال الفنية فى الجزائر :

مواقع الأطلس الصحراوي :

- فى الجنوب الوهراني : تيوت ، موغرار تحتاني ، الريشة ، سفيسيفة ،
- فى جنوب الوسط الجزائري : صفية بورنان ، عين ناقة ، صخر الحمام ، الحصباية .
- فى الشرق القسنطيني : عين رقادة ، خنقة الحجر ، كاف لمساورة .
- فى الطاسيلي ـ ناجر : توجد محطات الرسوم الكبرى فى أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جنت ، ونذكر منها : صفار ، جبارن ، تامريت ، تان زوميتان .
- فى الهقار : يعد مرتفع تيفيديست من أغنى الأماكن بالرسوم والنقوش . وهناك مواقع أخرى بالقرب من مدينة تمنراست .

لم يمارس صناع ما قبل التاريخ الرسم والنقش ، خلال فترة النيوليتي أو بعدها ، بنفس الطريقة ، كما أنهم لم يرسموا نفس الأشياء . حيث تبدو الرسومات متراكبة وفى أساليب مختلفة . واعتمادا على هذا التركيب وعلى تحليل الصور وأساليبها ، أمكن وضع تصنيف عام للرسوم الصخرية . فهناك مرحلة أولى هي مرحلة المدرسة القديمة ، وتمتاز بوجود الحيوانات المتوحشة الكثيرة ، خاصة منها الجاموس القديم . كما تبرز فيها هيئات بشرية ذات رؤوس مستديرة وأخرى فى أشكال كبيرة غريبة (معبودات) وحيوانات طويلة القامة . ثم المرحلة الثانية المعروفة بمرحلة « المدرسة الطبيعية » ، وتحتوي خاصة على رسوم الأبقار فى صورة قطعان أو فرادى . انها مرحلة رعاة الأبقار . هذا وقد واصل الناس ، بعد مرحلة ما قبل التاريخ ، ممارسة الرسم والنقش على الجدران الصخرية . وقد تلت مرحلة الأبقار فترة الحصان ، ثم عصر الجمل القريب منا .

ومهما كانت صلاحية هذا التصنيف ، فانه يمكن جمع وعرض المواضيع المسيطرة فى تلك الأعمال الفنية باختصار ، وهي أعمال امتاز فيها كل اقليم بخصائصه ، كما تعايشت أحيانا فى لوح واحد أعمال عصور مختلفة . ويجب ألا ينسينا اذن هذا التجميع بحسب المواضيع ، فى أن اللوحات تكون فى حد ذاتها مجموعات معقدة .

الحيوانات :

ان الجدران المرسومة أو المنقوشة تكون كتب حيوان حقيقية . فقد مثل الانسان حيوانات وحشية كالفيلة والسنوريات والنعام والزرافات والكركدن والغزلان والظبي والثيران القديمة والأروية وأفراس البحر ، وكذلك الحيوانات التي ربما كانت موضوع عبادة (عبادة الحيوان) ، مثل ذلك الكبش الذي تعلو رأسه كرة ، وهو كثير الوجود فى نقوش

الأطلس ، ويدعو الى احتمال ممارسة العبادة المصرية الممثلة فى كبش آمون ، وهناك أخيرا الحيوانات الأهلية ، كالغنم والماعز والثيران والبقر والكلاب . ثم الحصان والجمل فيما بعد . وتظهر علامـــات تدجين الحيوانات ، قبل ظهور الحصان والجمل ، بصفة محسوسة فى الحيوان نفسه . حيث تحمل صورة البقرة أو الثور أحيانا زماما (مقود) ، وتبدو أحيانا أخرى فى منظر اللوح العام ، مثلا : شخص يرعى قطيعة من الثيران باطمئنان (لوح جبارن الكبير) (صورة 24) ، وكذلك النساء اللواتي يركبن ثيرانا ويقدنها بمسك الزمام .

البشـــــر :

ان التمثيل البشري يمنح للفن النيوليتي الجزائري أصالة حقيقية . فهو ان قربه من نقوش الشرق الاسباني ، يباعد كليا بينه وبين الفن المعروف بـ (فرانكو ــ كانتابريك) العائد الى العصر الحجري الاعلى والذي تنعدم فيه الرسوم البشرية تقريبا .

لقد رسمت على الجدران صور الرجال والنساء والأطفال من مختلف الأعمار ، وهي فى وضع عادي أحيانا ، وفى مشاهد من الحياة اليومية ، كمناقشة قرب الكوخ ، مثل التي توضحها رسوم صغار ، أو فى قيادة القطيع نحو المرعى كما هو الشأن فى تين نازاريفت . أما مناظر القنص أو المعارك فهي كثيرة ، خاصة فى الطاسيلي (صفار ، جبارن) لكن الصور تكون أحيانا غامضة كثيرا فيصعب فهمها أو يستحيل ، مثـل المشهد الذي يمثل شخصا بفأس (؟) قرب حيوان ، ورجلا بعضو تناسل لا قياس له ، وجماعة من الناس فى وضعية من الحركات لا يمكن فهمها (أذرع ممدودة ، أشخاص جالسون أو قائمون بدون سـبب واضح) .

لاتزال المعلومات المستخرجة من هذه الرسوم متواضعة جدا ، وهي غالبا مشوهة غير أنها تقدم لنا نظرة عن ملابس الرجال أو النساء وزينتهن، وعن الحيوانات الأهلية المحيطة بهم ، والتي ما تزال فى حالة توحش وهم يصطادونها فيما يبدو .

تشخيصات مبهمة :

يمكن التأكد من هيئات الانسان أو الحيوان ولو تعذر علينا فهم المشاهد التي يظهرون فيها لكن هناك أشكالا فى الفن الصخري لا يمكن تفسيرها سوى عن طريق تأويل ضعيف جدا ، اعتبر بعضها ضمن المعبودات كالاله الأكبر (؟) « المريخ » بجبارن ، والاله الأكبر بصفار، والسيدة البيضاء ، والاله القرناء بأوانغيت ، انها تفسيرات غير مؤكدة . وهناك من اعتبر صور النساء الحوامل ، والرجال ذوي الأعضاء التناسلية الكبيرة رمزا لطقوس عبادة الخصوبة . ورأى بعضهم فى الأيدي المرسومة رمزا للوقاية من الأمراض الخ .. لكن هذه المحاولات تتعذر تماما فى بعض المشاهد الأخرى ، فتظل الرسوم أو المنحوتات مبهمة تماما (صورة 25) .

وواضح أن هذه التفسيرات قائمة على أسس التصورات الكلاسيكية البالية ، كرمز الخصوبة وطقوس المطر وعبادة الحيوان الخ .. ولم يبق هناك سوى احصاء علمي لهذه الأعمال الفنية ، يسمح بتوفير الشروط الملائمة للتصدي لمشكل تفسير الفن الصخري الجزائري المعقد ، مع بعض الحظوظ فى التوفيق .